وجوه من الشرق

اللقاء الاخير

بقلم ميشال حايك

بمناسبة مرور سنتين على وفاة النجوري يوسف الحدّاد ، ينشر عنه هذا المقال من احد احبائه — وما اكثرهم ! — الذين تعرّفوا اليه عن كثب . والحدّاد هو صاحب كتاب « اللبنانية » و« النجوى » الذي يكاد يكون وحيدًا في مكتبتنا العربية من نوعه لما فيه من رجوع وجلوس الى الطبيعة والاستشاء بمظاهرها الخلابة . والطبيعة عند الحدّاد تبعث على الهدوء والراحة والرجاء ففي « كتاب الله » كما يقول . وللحدّاد روايات عديدة طبع منها « لؤلؤة » و « ملك السجون » . وله كتاب تاريخي قيّم « المروءة » طبع منذ سنوات قلائل . فعسى تنشر مخطوطاته الباقية لينيد الادب النثري من طلاوتها وغناها .

هل اناديك وفي الصوت لجة جوفاء لا تخترق حدود هذا الفضاء المخيم علينا ؟

هل اناديك وحيثما تقطن الان « لم تنظره عين ولم تسمع به اذن ولم يخطر على قلب بشر ؟ »

عبثًا نداني فانك من افقك العالي لا تسمع اصواتنا التي يخنقها التراب وتبدّدها الانسام الغوادي .

مضت سنتان على انطباقة عينيك الابدية ، ولم يكن بعد من يخبر عنك الا بعض مقاطع من شعرك تتردد على الالسنة ، اسدلوا الستار على مسرح ايامك فكأنك لم تكن ، وكأن الحياة لم تحلم بك يومًا ، وكأن القبر محط امانيك المجنحة وآخر اغنية انشدتها يا شاعرًا كان في الارض ولم يكن للارض .

من ضجة الحياة الصاخبة الى ضجعة الموت ،

من انشودة العمر والطيب الى انعقاد الشفاه ،

من اليد الممدودة الى العيش الى اليد الملقاة في تعب على صدرك لا حراك فيها .

من المهد الى اللحد ،

ماذا رأيت وماذا تركت ؟

رأيت « ان الحياة هي حلم ، ومدتها بافراحها واتراحها كمدة المنام ،

وان يكن من معز فالجهاد بصبر وطلب وجه الله . »

وتركت قطعات من روحك على ورقات فانية تنحني عليها فتستنزف من كل مقلة دمعةً جاز عنها الشقاء في محاجرنا .

⁂

ذهبتَ ولم المس من كفيك آخر خفقة ، لتسير في جسمي آخر خفقة من جسدك ، فاحملك معي طول ايامي .

ذهبتَ ولم احدد اليك طرقي لينطبع في عينيك المغمضتين رسمي ، وتأخذني معك الى غربة القبر فاسليك .

احاول ان اتذكرك وابعث من غبار الايام صورتك الوضاحة .

احاول ان أحيي ما رسب في اعماق نفسي منك .

وحينما مررتُ على اثارك مجتهدًا في ان استلّ لوناً لحياك وجدت السطور بين يديّ فقيرةً ، عديمة الالوان ، واذا بحقيقة رسمك تجفل من امامي.

⁂

لم يبقَ لي الا ان اخطط ملامحك من خلال لقائنا الاخير :

كان ذلك في اواخر شهر آب عام ١٩٤٨ . جئتك ماشيا كأني احج الى ارض اقداس ، ولفح الهجير يحرقني . فالتقيت بك في ذلك الوادي ، حين كنت على صخرة موحشة بعيدًا عن المساكن ، غارقاً في صمت ملهم وتأمل خاشع . وعلى الجبال البعيدة رعاة ينشدون في القصب الحان التسبيح والغبطة. هناك رأيتك وقد استراحت عصاك بين رجليك مستندةً الى الركبتين اللتين هدأتا رؤوس الكثيرين من البشر ، وقد غرق رأسك في قبعة من صوف ، وبان خلالها عينان غائرتان في وقب سحيق .

فشعرتُ كأنك في غيبوبة انحطت فيها حواجز الذات وتساقطت الحدود

الترابية رويداً رويداً فرحتَ سارحاً وراء نفسك الثرثارة في الخيال في شوق اصم وشهوة طاهرة خرساء تحملك على جناحيها الى غير دنيانا...

على تلك الصخرة شاهدتك ووقفت ورفيقي نتأملك من بعيد ونستعرض بغير الكلام مراحل ايامك ، ما اجلاها جلسة كانت صورة لحياتك . كنت دائماً على صخرة ثابتاً في معتقدك لا تتزاح عنه ، ثابتاً في ادبك الذي شئته تعبيراً صادقاً عن وجهة القلب الحقيقية ؛ على صخرة بعيداً عن اوحال الارض واقذارها . على صخرة وكالنسر الذي يبني عشه على انقاها ، بنيت حياتك وجعلت الصخرة الاساس . وحين عصفت الزوبعة وهطلت المياه الجارفة ما خشيت السقوط او الميلان . ومن على صخرتك نظرت الى الحياة فزهدت بها . رأيتك هناك وقد اغمضتَ عينَي روحك عن الارض لكي لا تشاركك بنيها بشهواتهم ولا تقاسمهم نزعاتهم ، ورأيتُ السنين تمر على عيني جسدك فتطمس النور وتغور النظر ولكنك ما برحت تبصر الان الضوء الحقيقي الذي يهجع مشعاً في كل قرارة كل نفس لا تخشى ان تتطلع الى ذاتها عارية من المساحيق التي ما اكثر ما تخفي بها حقيقة الكيان الانساني .

نظرت الى الحياة من على صخرتك فوجدتها :

دنيا اغرّ من السراب نعيمها وامرّ طعماً من عصير العلقم
يسعى اللئيم بها رغيداً عيشه والحر يمشي فوق وكر الارقم

وهكذا اصبحت لديك جميع المناهج متساوية فكلها اباطيل وغرور فاعتصمت بثوبك الاسود تتخفى فيه عن عيون الشر المفتحة على كل مخارق . وظن الآخرون ان ثوبك ضيق عليك وأرغمت حريتك ، لكن الحرية كنت تستمدها من ذلك الذي تجندت في سبيل خدمته ، ذلك هو الحق الذي يحرر الذين يعرفونه .

عرفت ان الحياة لا تبقى لاحد فما هي الا ريشة في مهب الليالي العاصفات وعصافة بالية يعبث بها الزمان المتحول . فنشأ من ذلك قلق في نفسك والنفوس الكبيرة هي ابداً قلقة مضطربة فرحت تبني وجودك على اساس مكين ، على صخرة .

ها اجمل جلستك امامي .

وقفت ورفيقي نتأملك وكنتَ وحدك تسبح في كون غير هذا وانت تلك النفس الجوابة التي تبحث عن حبيب ازلي اضاعته في هذا العالم .

يا صاحب الجفون البيضاء المكتحلة بغبار السنين ، الملونة باضواء علوية تشع في ليل الناس ولا يبصرونها ، يا صاحب الشعر الاشعث الهازئ بطلاسم الناس ، رأيتك على صخرتك موحشاً وكم كنت تجلس هكذا ساعات متواصلات دون حركة ولا اختلاجة في عرق ظاهرة ، ويظنك المارون مضطجعاً بينما انت في يقظة تسخر من عيوننا المنفتحة على ارض الزوال .

وحدك الان كما كنت في كل حياتك . لم تأبه لخداع صديق ولبطلان علاقة فسرت على الدرب اعزل تحمل في جنانك صفاء البكارة الاولى . وحدك لانك كنت من تلك النفوس التي تعلو كل ما حولها . وحدك والنبوغ وحدة ووحشة وانفراد . . .

لحيتك المتبددة البيضاء يعبث النسيم الآتي من صوب البحر بشعراتها ترينيك ، في ذلك الوقار ، شيخاً من شيوخ الاساطير القديمة صوّره احد الشعراء من بلاد الاغريق . ولا عجب فاشعارك كاشعار القدماء تسير على كل لسان ، يرويها القرويون في اعالي جبالنا وقلّ ألّا يكون على لسان فلاح او راعٍ كلمة من تلك التي عطرت بها جرود بلادنا . وما اقلّ الذين يفهمونها ، ولكنهم كلهم يشعرون ، دون ان يفهموا ، بان هنالك وحدةً داخلية بين الحياة التي كنت تعيشها والآثار التي تركتها . وقد لا يذكر تاريخ الادب بين سطوره الا بعض لمحات عن جمال بيانك وشدة اسره ، ولكن الذين عرفوك سوف يذكرون خصوصاً جمال نفسك وشدة الحفاظ على عقيدتك . ان ما تركت من الآثار قليل جداً بالنسبة مما كان لديك من مواهب ، وبالنسبة مما كنته انت .

هذه البقعة بكاملها الممتدة الان امامي انتَ غذيتها حين كنت تعصر روحك فتخلق في صفوة اشعارك الكلمة الصافية وتجمع النبرة الحنون . وكنت تلقي على هذه الاكمات التي تفترشها الشمس جمالاً فضفاضاً فتجعل الارض بعد مرورك عليها اتقى والصخرة اطرى وانعم ملمساً . . .

. . .

كنت جالسا امامي ولم يبق بينك وبيني غير خصلات قلائل . انت من عيني ولا تشعر بقربي منك . ثم دنوت منك وحييتك ولمست يدك وقبلتك وضممتني بحنان الى صدرك كالطفل الى صدر امه مشتاقة ، فاحسست بانفاسك تخترق جسمي وتدور في عظامي كأنها جمرة مطهرة كتلك التي لمست شفتي اشعيا النبي .

وجلست قربك اسمعك وتسمعني واشعر بطفولتك واخجل امام طفولتك من ذاتي . ما كنت تقول لي لم يكن بالعجب ولكنه كان كل شيء . والكلمة التي تروح تنثر من شفتيك تحمل معها اثر نقاوة نفسية ولذلك يستقبلها الطفل الناوي فينا فيرقص من بهجة وحبور .

قلت لك : « لماذا تعتزل الناس ؟ » فاجبتني : « اخشى ان اعكر على الناس راحتهم لانني شيخ والشيخ يعذّم الناس عالةً وثقلاً . » فاعجب لتلك اليقظة الروحية التي كانت ميراثك من الطبيعة ولتلك النفس الرقيقة التي تحت وقر السنين حفظت صفاء يحاكي صفاء الاطفال ونعومةً كانت دهشاً للرجال .

وتحت صروف قاسية تطعن القلب طعناً بقيت كما انت ، ذلك الطفل الجامع يديه يصلي بحرارة مسعورة . أرهقتك آلام عديدة ، وبتّ ليالي طويلة على نخرات الوجع يتأكل عظمك المكسور وما كان ذلك الا ليزيدك اقتراباً من الانسان ومن الله .

وعندما قلتَ :

« قد صار القلب كعنقود ملقىً في معصرة الدهر »

أردفتَ من عميق نفسك القديسة :

« عذّب يا ربي العبد هنا وهناك تعطّف بالاجر »

*

كل الذين قرأوا « اللبنانية » قالوا عنك انك دماغ جبّار وحيلة واسعة تصوّر حالة البائسين اللبنانيين ايام الحرب الكونية الاولى باصدق مما تصوّر ريشة فنان مبدع .

وكل الذين اطلعوا على روايتيك المطبوعتين « ارثور » و « ملك الصين» رأوا فيك مصوّرًا ماهرًا لنزعات النفس البشرية على حقيقتها . وكل الذين قلبوا صفحات « المروءة » عرفوا كيف تجمع التاريخ بالادب وتسمو بهما معا .

وقيل عنك انك اديبٌ ومفكر وشاعر وانا اعرف انك كنت كاهنًا قبل كل ذلك . وما كان الكاهن فيك ليسيء الى الاديب والمفكر والشاعر بل جمّل وكمّل . كاهن يذيب لياليه طعاماً للجائعين الى غذاء غير التراب الفاني . كاهن يحرق حتى الذوبان عمره في خدمة من أُولم وابتُلي ويحنو على من ذلّله الادقاع . عرف انه للخدمة والعطاء الذي لا يطلب ردودًا واسترجاعاً ، وحينما قال له احدهم : ان الكاهن اليوم يتبع الدرهم أجاب : « نحن نخدم الله وهذه غايتنا الاولى وما الفلس الا عرض يأتي . فليمنع الناس الفلس عنا فلن يمنعنا ذلك عن خدمتهم والسير امامهم على الطريق الصاعد الى جلجلة الحياة . »

وقلبك كان تلك الجلجلة التي كم سمّر عليها الناس الجلبان وقلبك كان نوافذ مشرّعة على الافاق الرحبة لا تنغلق بوجه بائس من ذوي الحرمان ، وروحك كانت كُوًى تتطلع منها أعين هي سكنى الحنان والانعطاف . . .

*

واقتربت منك فاستندتُ الى كتفي ووقفت تنظر الى البعيد ولا تبصر بعينيك الحسيتين ولكن امام مقلة الروح ارجاء عريضة المدى وافاق رحبة تراها ولا اراها انا الواقف عن يمينك .

وقفتَ تعيد عليّ مقاطع من ترجيل شيخ الشعراء كما كنتَ تسميه وترتعش خافقاً باجمعك عندما تلفظ :

« O terque quaterque beati . . . »

واحسّ انك تحيا الان امامي واراك بعين الخيال ممتدًا كشجرة باسقة قديمة الاماليد تتفيأ ظلالها نبتةٌ فتيّة كانت انا . اية حياة تبدو في ذلك الوجه الذي خدّدت الليالي بياضه ! واي تهدّج في تلك النبرة الحائرة التي تجرّحني ! شعرت كأنها آتية من بلد بعيد فيها شيء من عالم اللانهاية ، شيء من تمتمة الاله الذي كنت تحمله كل صباح بين يديك وكل آنٍ في قلبك .

ومشيت خطوتين ثم قلت لي : « قف » وأعدت شيئاً من تصيدك . « القبر » ، وكان في صوتك رنة جزع يخالطه رجاء اكيد ، وغمرة حزن فيها من عميق الامل شهوة للبقاء غير مخذولة :

« قف هنا ، قد كفى تحث الرحيلا فالى اين انت تبغي الوصولا ؟
قد وصلنا فألق حملك وامسح من مسير الطريق عنك الوحولا
هوذا القبر منتهى السير فاهدأ نتحدث عن الحياة قليلا... »

ومن اعماق ذلك الوادي الاخضر المرتعش تحت هيمات النسيم الحيي ، الغارق في دعة الغفوة المطمئنة ، قرب اختلاجات الدوالي الشاديات وقفت متطلعاً الى لا شيء وقد شاعت على وجنتيك صفرة وشحوب وتنهدت تنهيدة عميقة ذابت شعراً :

« من الاعماق يا عذرا صرخت اليك لبيني
وها أنذا على قدميك ابكي فاستجيبيني...
فيا طوبى لمن سترت خطاياه ، فغطّيني
بستر منك يا عذراء في الدارين يحميني... »

شيخ في الثالثة والثمانين : انت تبكي امام العذراء وتطلب ان تختفي بذيلها . إيه تلك الدموع التي افلتت من مقلتيك في اواخر آب ؟ أما لقيتها اليوم يا ابي حلقات مشعشعات نوراً في اكليل كان على الارض من شوك فاصبح هناك عندك من لآلئ سعادة باقية .

رافقتك في فترات من العمر هاربات فعرفت منك حبّ كل شيء في الارض واحترام الحشرة الذليلة والغرسة المضعوفة كاحترام الانسان لان خالقها ترك فيها اثراً من حبه حين جبلتها يداه ، ومسحة من جماله حينما رأى ان إبداعها كان حسناً .

هكذا كنت تكتب « النجوى » . تستوحي الطبيعة التي احببت فجاء كتابك قطعة روح منك ومنها ، فلن يفهم كتابك الا الذي تعرّف اليك عن كثب .

أحببتَ كل شيء فلم تشعر بالغربة بعد ان اعتزلت الناس وجلست الى الاشياء تحدثك وتحدثها ، واكاد اسمع نغمة الطيور العذارى وخفق اجنحة ابكار الفضاء متهللةً في استقبالك . تسير الى الحقل وتتذى الطعام والشراب وتزود تحت اشجار الزيتون وفي ظلال الكروم كأني بك تستكشف اصبع الله الممتدة الى الاكوان تحفر في مخاريب الصخور تماثيل الحب التي لا يبصرها الّا الذين أوتوا روحاً شفافةً كروحك . وكأني بك في ذلك الوادي تنشد اليد التي سوف تستدل بها في سيرك على طريق الابدية . وتنهد الى ظل كل شجرة وتتحدث الى كل زهرة وصخرة وتهمس في مسمع كل طائر نغماً لم يسقط في مسمع انسان .

عذاب الشيخوخة هو الشعور بالوحدة والعزلة فكأن الوجود انهزم في نظر الشيخ والاشياء تعرّت من معانيها والجمال اصبح مبتوراً . قد يريع هذا العذاب ولكنه لا يريع نفسك النقيّة التي لها من جمالها وروحانيتها قدرة على خلق عوالم جديدة تهزأ بمقاييس عوالم الواقع المنحلة .

وشيخوختك انت صبوةٌ تزداد كل يوم الى اللقاء الاقصى مع الله ، هي جمرة شوقٍ مشتعلة محبوسة في عظامك كتلك التي حبست في عظام ارميا فجهده إمساكها .

حقيقةً انك لم تقل كلمتك الكبرى . لقد بقيتَ على شفتيك هيأ مستمرًا تحاول ان تهمسها فتعجز عن ذلك لان ما تحمل في قلبك لن يُحمل الى الناس الا بجهد وعياء : في قلبك الحب الذي لا يُذاع . وستنقرض البشرية ويبقى الحب كلمةً في فم الانسان يحسّ بها كالانامل تتغلغل في خلايا وجدانه ويعجز عن النطق بها ، يفهمها ولا يستطيع ان يُفهمها .

وكدت ادرك شيئاً من محاولتك البوح بكلمة حياتك الكبرى حينما كنتَ تنهض صباحاً وقد أرقت الليل كله تهذّ بترانيم التوله صوب الحق الاول فترنم مذيباً صوتك مع اصوات الخلائق : «الهي لك الحمد ، الهي لك الشكران !..»

من لم يلمس تلك اليد المتداعية الانامل ويصغي الى نبرة ذلك الصوت الذي يترك في قرارة النفس شيئاً من نبرات نبيٍّ قديم فقد فاته الاستماع الى كلمتك الكبرى

قد لفظت شيئاً منها حينما كان يرن صوتك في حنايا كنيسة مهجورة ، صوتك المتقطع الذي اكسبه الزمان روعة القدم . كنتَ وحدك مع الملك تبثه لواعج الفراق المستطيل والعمر المتمرد . اي دخيل كنته انا اذاك اعكر على الحبيبين صفوة اللقاء ! واشعر عندئذٍ بان كل ما كان حولك يتبدم وكأنك تتبادى وتتطاول بعيداً وتغترب في الاعالي ملتحفاً بكدس متلبد من غمائم مشتعلة الاطراف . ويكاد رجع كلماتك وتراتيلك يكون قطعاً ملموسةً من روح زاخرة نبأضة . . .

*

كان ذلك في اواخر آب ، يوم التقينا المرة الاخيرة ، وهكذا تحدثنا ثم وقفنا ثم مشينا ووقع عصاك على حصباء الوادي كأنه انتفاضة قلب يحتضر او دقات مسامير في تابوت . ووصلنا اخيراً الى السنديانة قرب « مار روحانا » ، قرب القبر الفارغ المنتظر :

« قد وصلنا فألقِ حملك وامسحْ من غبار الطريق عنك الوحولا !»

وهناك تودعنا وخلف كلمات الوداع كان قلب يتقطع ، هو قلبي . وتركتني لتلج جوف امنا الارض بعد جولتك الغابرة في وجدان الدهر . لقد انتهى كل شيء . ووُضعت فوق القبر حجارةٌ ضخمة ونبتت اليوم اعشابٌ بريةٌ دائمة الاخضرار .

واستفاقت الطيور في « الوطا » حيرى فلم تسمع وقع اقدامك وتقلبات صلواتك . واشجار « الزيتون » اشتبهت ان تظللك يا من كنت فيئاً للنفوس التعبة . والسنديانة الهرمة قرب الكنيسة استيقظت ذات صباح فابصرت مكانك فارغاً وعصاك ملقاةً على الارض تحلم بلقاء ان يأتي ، وتتذكر لمس الاصابع التي غُيبت في التراب . فلسوف يتعثرها النسيم الاتي من الوادي في آونة الهجير ولا اذن تصغي لالتقاط موسيقاها ، ولا قلب ينبض مع اختلاجات وريقاتها — والكنيسة استندت الى ضريحك تكلي تصعد الصلوات محرورة لاهبة . . .

*

زرت قبرك بعد سنة فاحسست بأنك حاضر الروح هناك وشعرت بالروعة

حائة عيه . وكانت العصافير تغني وارعاة على الروابي بين قطعانهم يشدون في القصب فينصت الوادي من الحنين . وافتكرت طويلًا مجياتنا الهاربة من ايدينا كأنها ظلّ في ميلان ، او هجمةٌ في ليل . ولكننا غدًا نستفيق في جوار ربك حيث انفتحت عيناك على الجمال وانفتح قلبك على الحب المبدع الكائنات .

نحن هنا في خيمةٍ منصوبةٍ لليلةٍ عابرة ، وغدًا حين يطلع الصباح ويفنى السر ننهض لنتابع رحلتنا نحو مبيت الشروق ، وزادنا هو الرجاء ، ورجاؤنا هو الدليل . . .